المحاضرة الخامسة

عصر ملوك الطوائف بالأندلس

(422-484هـ)

رأينا مما سبق أن الخلافة استمرت تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن جاء المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده فانتزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد، واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعي، فكان مثلهم في ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية في بغداد، ومثل أسرة بدر الجمالي التي سيطرت على الخلافة الفاطمية في القاهرة.

ولا شك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالأندلس لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور في الخلافة نفسها، وهو أمر خطير لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل رغم قوتهما.

ولقد هز هذا الحادث الدولة الأموية هزا عنيفا، وعز على المُضريين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين، وأن تبتعد الخلافة عن قريش، فانبعثت العصبية العربية القديمة، وانتهز الأمويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية فخلعوا هشاما على العرش، وولوا رجلا من أحفاد الناصر وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي بالله.

واعترضوا عبد الرحمن (شنجول) في طريق العودة وقتلوه وبذلك تنتهي الدولة العامرية سنة 399هـ. والفترة المتبقية من التاريخ الأموي بالأندلس مليئة بالفتن والاضطرابات حيث تصارعت فيها عناصر المجتمع الأندلسي فخربت مدن وهدمت. إلى أن أعلن أبو الجزم بن جهور انتهاء الخلافة الأموية سنة 422هـ.

بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله. وهكذا تحول الحكم في قرطبة الى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عرف بالتاريخ بحكم الجماعة.

وقد نتج عن سقوط الدولة الأموية أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة واستقل كل أمير بناحيتيه، وأعلن نفسه ملكا عليها فدخلت البلاد بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف، أو عصر الفرق كما يسميه ابن الكردبوس.

ولقد انطوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس.

-**الحزب الأول:** ويمثله أهل الأندلس الذين استقروا فيها من قديم بغض النظر عن أصلهم.

وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون في إشبيلية، بنو جهور في قرطبة، بنو هود في سرقسطة، بنو صمادح أو بنو تجيب في المرية، وبنو برزال في قرمونة، بنو خزرون في أركش، وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية.

-**الحزب الثاني:** فيمثله المغاربة أو البربر المتأخرون الحديثو العهد بالأندلس ولاسيما الصناهجة الذين استقروا في أيام المنصور بن أبي عامر، ومن زعماء هذا

الخرب بنو زيري في غرناطة وهم فرع من حكام الدولة الزيرية في افريقية على عهد الدولة الفاطمية، كذلك بنو حمود الحسنيون وهم من السلالة الادريسية كانوا مستقرين ببلاد غمارة شمال المغرب الأقصى، وأثناء الفتنة انتهز أميرهم أبي حفص عمر وهو (على بن حمود) وكان واليا على طنجة وسبتة فاستولى على مالقة ثم تقدم زحف نحو قرطبة وقتل الخليفة سليمان بن الحكم (المستعين) سنة 407هـ.

وأسس دولة الحموديين التي كانت قاعدتها مالقة. وبحكم استقرارهم بين قبائل البربر صاروا يتكلمون بلسانهم البربري.

– الحزب الثالث: يمثله كبار الصقالبة الذين استقروا بشرق الأندلس وكونوا مع العامريين تحالف (الدولة العامرية الصقلبية) ومن كبار زعمائهم:

–مجاهد العامري الذي استغل بدانية والجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردينيا، وسواحل إيطاليا.

– زهير العامري في مرسية

–خيران العامري في المرية

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكه بسياج شرعي روحي ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره.

فبنوا عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول جاءوا بشخص فقير يسمى "خلف الحصري"، كان يعمل حصريا في مصنع الحلفاء، وكان شديد الشبه بالخليفة الأموي هشام المؤيد المشكوك في موته فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب

الجماعة، وموهوا به على الناس فترة من الزمن إلى أن أظهر المعتضد موته ونعاه سنة 455هـ. وادعى أنه عهد إليه بإمارة الأندلس من بعده.

أما الحزب المغربي فقد تزعمه بنو حمود مستندين إلى أصلهم ونسبهم الشريف.

أما الصقالبة فحاولوا إحياء الخلافة في مملكتهم فقد أقام مجاهد العامري خليفة قرشيا من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطي ولكن سرعان ما عزله وطرده.

المهم هذه الدويلات الطائفية من غريب الأمر كان معظم ملوكها عمدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين في حياتهم وألقابهم .....

وفي ذلك يقول أبو الحسن بن رشيق القيرواني:

مما يُزهدني في أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

ومن بين الأمثلة أن بنو حمود في مالقة كانوا يتكلمون مع زوارهم من وراء حجاب.

ولم تكن هذه القوى متعاونة فيما بينها أو ساعية لتحقيق مصلحة المسلمين، بل كانت المنافسات والأطماع الشخصية هي السمة السائدة فيما بينها، فتسابقوا

إلى بسط نفوذهم وتوسيع أراضيهم على حساب بعضهم البعض بمختلف الوسائل، وقد صور ابن الخطيب هذه الحالة بقوله: "وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم، ولا توجه إلى الاستئثار قصد..."، وهكذا كانت علاقاتهم قائمة على التحرز والحذر وإنفاق الأموال في بناء الحصون والمسارعة في الاستعانة بالممالك النصرانية في طلب الإمداد بالرجال والسلاح للحفاظ على سلطتهم مقابل رضاهم بدفع الجزية.

وهكذا استغل ملوك النصارى تفرق ملوك الطوائف وفرضوا عليهم الشروط وساوموهم على أراضيهم، وعملوا على إضعاف هذه الإمارات المتناحرة باستنزاف طاقاتها وثرواتها مما سهل الأمر لملك قشتالة الفونسو السادس من احتلال مدينة طليطلة عام 478 هـ/1075م، هذه المدينة الحصينة بسبب سياسة الضعف التي اتبعها أميرها يحي القادر بن ذي النون.

وقد كان لسقوط طليطلة أثر عظيم في نفوس أهل المدن الأندلسية الأخرى، وهو الحادث الذي استغله المرابطون لإعلان الجهاد المنقذ من الزحف المسيحي، بعد أن عجز أمراء الطوائف في توحيد صفوفهم في هذه المواجهة، لأن الفونسو السادس بعد طليطلة هاجم مملكة بني عباد باشبيلية وهي أكبر الممالك الإسلامية بالأندلس، وسقوطها معناه سقوط غيرها بسرعة وأدرك المعتمد بن عباد ملكها الخطر الداهم فقرر الاستعانة بالمرابطين.